

الحكاية في الفكر النحوي: دراسة لسانية في ضوء التداولية

عمر محمد علي أبونواس⁽¹⁾

المخلص: عمل النحاة على وضع أنماط اللغة ضمن أطر محدّدة المعالم، فجهدوا في لملمة شتاتها، وجمع متفرقاتها، والتوفيق بين متناقضاتها، ليس هذا فحسب، بل إنهم عملوا على وضع الفكر النحوي في مستوياته المختلفة بمنهجية تتلاءم وطبيعة العقل العربي، وتتماشى مع النهوض بالأداءات اللغوية من واقعها الراكد إلى فضاءات منهجية قائمة على التداول المعرفي للظاهرة اللغوية. من هنا، يحاول هذا البحث الوقوف عند ظاهرة من الظواهر التي برز فيها هذا الفكر، ألا وهي ظاهرة الحكاية، لما لهذه الظاهرة من خصوصية بأنماطها وأداءاتها، ويسعى لاستكشاف معالم المنهج العلمي اللساني المحكم الذي اتبعه النحاة في هذه الظاهرة، وبيان أثره في ضبط معالم الخارطة اللغوية في التراث العربي. وعنيت الدراسة بقراءة هذه الظاهرة النحوية دراسة تطبيقية انطلاقاً من المبادئ التداولية المعاصرة.

الكلمات المفتاحية: الحكاية، الفكر النحوي، دراسة لسانية.

Change in Diacritic Parsing From Grammarians' Perspective: A Linguistic Study in Light of Pragmatism

Omar Abu Nawas

Abstract: Arab grammarians have put language aspects within specified frames by accumulating its diversities and harmonizing its far-fetched aspects. They have also shaped all the levels of grammatical thought in a way that suits the Arab mind by activating language functions and implementing them in a new perspective. Thus, this study tries to investigate the phenomenon of change in diacritic parsing which was prominent in Arab grammatical thought. It also tries to find out the elements of the scientific method that the Arab grammarians and linguists have followed in studying that phenomenon by showing its influence on manipulating the linguistic map in the Arab heritage. Finally, the study has investigated that linguistic phenomenon in a new pragmatic functional way.

Keywords: Diacritic Parsing, Grammarians' Perspective, Linguistic Study.

⁽¹⁾ أستاذ مساعد / قسم اللغة العربية/ كلية اللغات، الجامعة الألمانية الأردنية، Omar.abunawas@gju.edu.jo

مدخل الدراسة

مما لاشك فيه أنّ النحو العربي مرّ بالعديد من المراحل التي جعلت منه نظرية متكاملة، وقد خرج النظام النحوي العربي من أذهان ثلة من العلماء الأوائل الذين أخضعوا مباحثه لجملة من الأصول التي قام عليها بناء تلك النظرية؛ فالنحوي كان يأخذ بالسماع كما يأخذ بالقياس، والتعليل، والاستصحاب؛ للوصول إلى توجيه الظاهرة توجيهها سليماً معتمداً على النظر إلى النمط المستعمل.

لذلك تعددت تقنيات التأويل والتوجيه عندهم، وتشعبت حتى أصبحت الذهنية واقعاً ملموساً، أو ثقافة يرتكزون عليها لتشبيد نظامهم النحوي، فالنحاة عمدوا إلى العقل، وحاولوا بطريقة أو أخرى إخراج تبرير لهذا النمط أو ذلك الشاهد أو تلك القراءة؛ لذلك فإنّ الناظر في مرجعيات تفكيرهم يلحظ فيها ملمحين مهمين:

أما الملمح الأول، فيتمثل في إعمال العقل وفي إدخالهم لما هو منطقي ومقبول، ويتماشي مع الاستعمال، ولو أنّ هذه المسألة دفعت النحوي أحياناً إلى الاستطرادات الذهنية، وأغرقتة أحياناً أخرى ببعض التكاليف المقبولة إلى حدّ ما، إلا إنّ النحوي نجح في إثبات شمولية القاعدة من جهة، واستثمار البنى الفكرية لديه لإثبات مسابرة ما شاع وانتشر على ألسنة الناس؛ لذلك كانت معظم المبررات العقلية عنده في هذه المرحلة تعمد إلى اللهجات، أو بعض الأقيسة الجوهرية - وليست الشكلية بطبيعة الحال - أو إلى استعمال بعض البدائل المتداولة والشائعة.

أما الملمح الآخر، فاخصّ بالشعور الفكري لدى بعض النحاة بالخوف الشديد على القاعدة الكلية التي وُضعت، وخشيتهم من أي نقض لعواملها أو معمولاتها؛ لذلك صارت وظيفة النحوي أنّه عالم تأويل أكثر منه محللاً لأنماط متداولة، وأدى الحرص الزائد من النحاة في هذا المجال إلى اهتمامهم الشديد بالمعيار التركيبي لبنى النص، ومحاولة قطعه عن فضائه الخارجي، وتشبُّثهم غير المقبول في العوامل المعمولات، ولا أريد هنا الإغراق في المعركة التي دارت حول مسألة العامل.

وعلى الرغم من هذين الملمحين إلا أنّ دارس اللغة، والباحث في طيّات صفحات مؤلفاتهم، والمنعم في أسفار المرجعيات الفكرية التي أنتجت هذه النظرية النحوية العميقة والمتناسكة، يجد أن من الإنصاف الإشارة إلى أمر في غاية الأهمية أدّى إلى إنتاج كمّ هائل من التسلسلات التركيبية عند النحاة، ألا وهو اهتمامهم بمتطلبات التخاطب وظروفه ومعطياته.

وقد عكس هذا الاهتمام في أحيان كثيرة كسرهم لقيود النظر إلى ما هو داخل النص فقط، ومحاولة اختلاق الحجج الفكرية التي أثقلت كاهل اللغة ودارسها إلى فضاء تداولي أوسع ينظر إلى المتكلم الذي ينتج النص وظروفه المعنوية من جهة، وظروفه الخارجية من جهة أخرى، والتي ترتبط ببيئته، أو بلهجته التي صدرت نتيجة متطلبات هذه البيئة ومعطياتها، وبالمخاطب الذي يؤدي وظيفته بكل مسؤولية من خلال محاكاته لذلك المتكلم بنمط ثابت متجاوزاً فكرة العامل، وتاركاً قيود النحاة وراء ظهره. فمهمته أن يستعمل اللغة بأنماطها، وأن يتواصل بعباراته وإخباراته وفقاً لما يتطلبه السياق، ووفقاً لمعطيات الكلام، ومراعاةً للمعنى الذي يريد إيصاله.

من هنا، كان موضوع هذا البحث ظاهرة الحكاية؛ لما تحمل بين ثناياها الشيء الكثير بالنسبة للمتكلّم والمخاطب، وربما تعني أكثر للنحوي الذي وقف حائراً أمام تلك الأعلام المحكية، وحاول أن يعمل فكره جاهداً؛ لفهم تلك الأنماط التي تغايرت كثيراً مع ما وضعه من قواعد وقوانين تحكم تلك الاستعمالات.

لذلك، حاولت هذه الدراسة البحث في المرجعيات الفكرية التي أدت إلى تكوين هذه الظاهرة، ومحاولة دراسة هذا الموضوع من وجهة نظر لسانية معاصرة انطلاقاً من التداولية ومبادئها الوظيفية.

أولاً: الحكاية (المفهوم والأنواع)

الحكاية لغة: "الحكاية كقولك حكيت فلاناً وحاكيتته فعلت مثل فعلته، أو قلت مثل قوله سواءً لم أجازه، وحكيت عنه الحديث حكاية.¹

ومن ينعم النظر في المفهوم الاصطلاحي للحكاية عند النحاة، يلمس أن نظرتهم لهذا المصطلح تنبثق من الواقع الاستعمالي للألفاظ؛ فلذلك قال العكبري: "معنى الحكاية أن يأتي الاسم، أو ما قام مقامه على الوصف الذي كان قبل ذلك."²، وقال ابن يعيش: "الحكاية: ضرب من التغيير، إذ كان فيها العدول عن مقتضى عمل العامل."³

والمنتبع لهذه التعريفات يجد أن آراء النحاة في تعريف الحكاية تركز على محورين:

أما المحور الأول، فهو الثبات ولهذا الثبات مستويان: فهناك ثبات في الحركة، وثبات في الصيغة قبل الاستعمال وبعد الاستعمال، وتقوم فكرة الثبات هذه على تجاوز ملحوظ لمسألة الموقع، وما يرتبط به من تغييرات يفرضها النظام التركيبي للجملة العربية حسب نظرية النحاة وبالرغم من توافر العوامل في الجملة.

وأما المحور الآخر، فهو يختص بالاستعمال وما يتصل به من أسس، إذ إن النحاة بينوا أن مسألة الحكاية قائمة على النظام الاستعمالي الذي ينأى بالقاعدة عن الجانب المعياري إلى الفضاء التداولي.

فالنحو العربي لم يكن قائماً على التجريد النظري للقواعد فحسب، بل كان يركن إلى الاستعمال اللغوي، ولعل هذا الاستعمال هو ما دفع المتكلم لاستعمال أنماط الحكاية بطريقة ثابتة غير متغيرة مثل بعض الأعلام والجمال المحكية.

أنواع الحكاية:

للحكاية في العربية نوعان⁴:

1- حكاية معنى:

تكون بلفظ منصوب، فإذا قال قائل: "الله خلق السماوات والأرض" وحكيت معنى قوله له: قلت حقاً أو صدقاً، والمعنى قلت: قولاً حقاً.

2- حكاية لفظ:

وتكون بإعادة الكلام المحكي على ما هو عليه نحو أن تقول: جاءني زيدٌ، فتقول: من زيدٌ؟ وتقول: رأيت زيداً، فتقول: من زيداً؟، وتقول: مررت بزيد، فتقول: من زيدٍ؟

تقسم الحكاية إلى قسمين:

1- حكاية المفرد:

أما حكاية المفرد، فتقسم أيضاً إلى قسمين:

1- الحكاية بأداتي الاستفهام (أي ومن):⁵

¹ ابن منظور، لسان العرب، (حكي)

² العكبري، اللباب في علل البناء والإعراب، ج2/135

³ ابن يعيش، شرح المفصل، ج4/19.

⁴ الحيدرة اليميني، كشف المشكل، 522.

⁵ انظر: السيوطي، همع الهوامع، ج5/321.

والأصل في (أي) مطابقة المحكي إعراباً وتذكيراً، وإفراداً، وتثنيةً، وجمعاً. فيقال في حكاية قام رجل: أي، وفي قامت امرأة: أية، وفي قام رجلاً: أيان، وفي قامت امرأتان: أيّتان، وفي قام رجال: قام أيون، وفي قامت فتيات: أيّات. وفي رأيت رجلاً: أيأ، وفي مررت برجل: أيّ.

أما حكاية (من)، فيشترط في الحكاية فيها أن يسأل بها عن المذكور النكرة وفقاً لا وصلاً عند جمهور النحاة. على أن الأعلام لا تخضع لهذا الشرط.

2- الحكاية بالأعلام من غير أداتي الاستفهام السابقتين، نحو الأعلام المنقولة من مثل: (جاد المولى) (شاب قرناها)، وما سمي بالحروف نحو: (قام أو) ونحو ما ورد عن العرب من مثل: (سورة المؤمنون)، (وما عندي من تمرتان).

2- حكاية جملة:

وتقسم الجملة المحكية إلى:

1- حكاية الجملة المفروضة.

نحو قول الشاعر:

سَمِعْتُ النَّاسَ يَنْتَجِعُونَ عَيْثًا

فَقُلْتُ لِصَيْدِحَ انْتَجِعِي بِلَالًا⁽⁶⁾

2- حكاية الجملة المكتوبة

نحو: قرأت على خاتمه: الحمد لله.

ثانياً: التداولية (المفهوم والمنهج)

يعد (أوستن) وتلميذه (سيرل) من أبرز مؤسسي المدرسة التداولية في العصر الحديث، وقد تعددت تعريفات التداولية عند الباحثين، فمنهم من عرفها بأنها: "العلاقة بين العلامة ومؤولها".⁷

ومنهم من عرفها بأنها: "كل ما يتعلق بعلاقة الملفوظ بالشروط الأكثر عمومية عند المخاطب".⁸ أو "هي دراسة جوانب السياق التي تشغل شكلياً في تراكيب اللغة وهي عندئذ جزء من مقدرة المستعمل".⁹ وعرفت: "دراسة العلاقات بين المرسل والمستقبل وعلاقتها بالسياق".¹⁰ وركّز جرايس في حديثه عن التداولية على البعد العملي لها الذي يتمثل بالاهتمام بالمعنى في المحادثات.¹¹

أما في الدرس اللغوي العربي، فقد وجدت دراسات عدة تناولت تعريف التداولية، فهذا محمد عناني قال: "دراسة استخدام اللغة في شتى السياقات والمواقف الواقعية أي تداوله عملياً وعلاقة ذلك بمن يستخدمها تفريقاً لها عن علاقة الألفاظ بالعالم الخارجي أو دلالتها".¹²

أما محمود نحلة، فرأى أنها: "دراسة اللغة في الاستعمال أو في التواصل".¹³

⁶ نو الرمة، ديوانه، 528.

⁷ Georg yole , Pragmatixes, Oxford University press Newyourk, 2000, , p.

⁸ فرانسوز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، المغرب، 1986، ص84.

⁹ Crystal, D.)1999,(A Dictionary of Linguistics and Phonetics , Black well , Great Britain, P 271.

¹⁰ خوسيه، ماريّا إيفانكوس، نظرية اللغة الأدبية، ترجمة، د. حامد أبو أحمد، دار غريب، القاهرة، 1991، ص232.

¹¹ Leuin son , Stephen, Pragmatics, Cambrdge University, 1983, P10

¹² محمد عناني، لمصطلحات الأدبية الحديثة، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، 1996، ص76

¹³ محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص14

وتقوم الدراسة التداولية على جملة من المبادئ منها¹⁴:

1. القصدية عند المتكلم.
2. أنواع المعنى المتعلقة بالسياق.
3. الاهتمام بكل ما يتصل بالعمل التخاطبي للوصول إلى المعنى.
4. إفادة المخاطب ما ليس عنده.
5. المؤثرات المعرفية.

ثالثاً: الحكاية والاستلزام الحوارية

طرفا الخطاب (المتكلم والسامع) بين القصد والإفادة

ترتبط التداولية بفكرة الاستعمال¹⁵، وقد أولت التداوليات الحديثة عناية كبيرة لعنصري الخطاب المتكلم والمخاطب انطلاقاً من الاعتقاد الشائع بأن الخطاب يتوجه من وإلى أحد الطرفين¹⁶.

إنّ الواقع التداولي للحكاية يكشف لنا أنّ هذه الظاهرة نشأت في رحم التواصل بين طرفي الخطاب المتكلم والمخاطب، وقد أشار سيبويه إلى ذلك في سياق حديثه عن الحكاية:

"فجاز هذا في الاسم الذي يكون علماً غالباً على هذا الوجه، ولا يجوز في غير الاسم الغالب كما جاز فيه وذلك أنه كثر في كلامهم، وهو العلم الأول الذي به يتعارفون... وإنما حكى مبادرة للمسؤول، أو توكيداً عليه أنه ليس يسأله عن غير هذا الذي تكلم به"¹⁷.

ف رأي سيبويه هذا يركز على العلاقة التواصلية بين المتكلم والمتلقي في وضع القواعد.

فلماذا خصصت الحكاية بالأعلام؟ لأنّ بها يتعارفون وكثر دورانها بين الطرفين، ولعله يتأكد لنا من هذا الرأي أنّ النحاة كانوا في تماس مباشر مع ما يتداوله الناس، وما يتواصلون به. وفي هذا قال ابن يعيش: "وخصوا الأعلام بذلك لكثرة دورها، وسعة استعمالها في الإخبارات والمعاملات ونحوهما"¹⁸.

وهذه التوجيهات النحوية على تماس مباشر مع أهم المبادئ التي قامت عليها التداولية التي ركزت على "تداول اللغة بين المتكلم والمخاطب الذي يدل على التعامل الحي بينهما في استعمال اللغة"¹⁹.

وتشير هذه العملية التواصلية وعلاقتها بتخصيص الحكاية، إلى جانب رئيس من الجوانب التي كان يعتمد عليها النحاة في وضعهم لأليات التقعيد النحوي. فاللغة بأنماطها المتداولة تفرض وجودها على النحوي الذي يتلقى هذه الاستعمالات، ويشكلها وفق رؤية تقوم على احترام ما ورد في كلام العرب، ووضع قواعد تبنى من هذه الاستعمالات وهذا الكلام ليس تنظيراً، بل هو واقع ملموس نجده في كلام النحاة عن سبب اختصاص الحكاية بالأسماء:

قال العكبري: "فالأسماء أكثر دوراً في الكلام إذ كانت التعريفات على الاختصار لا تحصل إلا بها، وما كثر استعماله يخص بأحكام لا توجد فيما قلّ لأنه لا يلتبس"²⁰.

¹⁴ صحراوي، مسعود، التداولية عند علماء العرب، ص 185

¹⁵ عيد بليغ، التداولية البعد الثالث في سيموطيا موريس، مجلة فصول، القاهرة، عدد ربيع 2005م

¹⁶ إدريس مقبول البعد التداولي عند سيبويه، عالم الفكر، مجلد 33، يونيو 2001

¹⁷ انظر: سيبويه، الكتاب، 413/2.

¹⁸ ابن يعيش، شرح المفصل، ج4/19.

¹⁹ محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص52

²⁰ العكبري، اللباب في علل البناء والإعراب، ج2/135.

وإنَّ النظر في الحكاية يجعلنا نتوقف عند عاملٍ آخر يكشف الطبيعة التداولية التي قامت عليها فكرة الحكاية، ألا وهو البحث في مبادئ القصد والإفادة أي إنتاج أنماط لغوية متعددة ومتنوعة يقصد منها المتكلم جذب انتباه المخاطب وإفادته ما ليس عنده.

ويراد بالقصد عند التداوليين الغاية التواصلية التي يريد المتكلم تحقيقها من الخطاب وقصده منه. وتعدّ هذه الغاية قرينة تساعد في تحديد الوظيفة النحوية، وبيان دورها في التحليل النحوي للجملة، وقد أطلق عليها المعاصرون (القصدية).²¹

أما الإفادة، فقد عُرفت عندهم على أنها حصول الفائدة لدى المخاطب من الخطاب ووصول الرسالة الإبلاغية إليه على الوجه الذي يغلب على الظن أن يكون هو مراد المتكلم وقصده. وهي الثمرة التي يجنيها المخاطب من الخطاب.²²

وتكشف لنا ثنائية القصد والإفادة عن حقيقة لا يمكن إنكارها عند النحاة العرب، مفادها أن اللغة وفّرت حلقة موسعة من الاستعمالات التي انزاحت عن القاعدة الرئيسية، ولا شك أن الحكاية شكّلت حلقة مهمة من حلقات هذه السلسلة الاستعمالية بين طرفي الخطاب.

ولعلّ مناقشة هذه المبادئ التداولية التي قامت عليها الحكاية وعلاقتها ببعضها بعضاً يدفعنا هنا للتساؤل: هل الاستعمالات اللغوية التي وُجدت بفعل الحكاية شاذة؟ أي: هل يمكن وصف الحكاية بالشذوذ؟

وللإجابة عن هذا التساؤل لا بدّ من الإشارة هنا أن النحاة كانوا يضعون القاعدة وفق الأغلب والأكثر شيوعاً، فإذا ما مرّ معهم نمط استعمالي لا يتفق مع القاعدة التي وُضعت وصفوه بالشاذ، أو بالغلط، أو بالتوهم، أو إلى غير ذلك من المسوغات غير المنطقية التي يرفضها المنهج اللغوي السليم. وبذلك، يمكن القول: إن الربط بين الأنماط التي وردت محكية من مثل: "دعنا من تمرتان" و(ألسن بقرشيياً؟) ومن مثل قول الشاعر:

والله ما ليلى بنام صاجبه ولا مُخالط اللّيان جانبُه²³

وبين فكرة الشذوذ إنما هو ضربٌ من المبالغة التي يأبى الذوق اللغوي القبول بها، فالأفضل هنا النظر إلى الاستعمال اللغوي لا إلى التنظير الفكري، فلا أحد ينكر أن هذه الأنماط المتداولة استعملت ممّن يوثق بفصاحتهم، والأنسب أن توجه هذه الشواهد بناءً على النظر إلى ظروف التخاطب وأحواله المتداولة؛ فالمتداولية "فرع من علم اللغة يبحث في كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم أو هو دراسة معنى المتكلم."²⁴

وما ورد من أمثلة وشواهد على الحكاية إنما هي نمطٌ واحدٌ مستعملٌ، وقد استعملت اللغة الأنماط الأخرى التي وصفها النحاة بأنها تتفق مع القياس، فالأمثلة التي حُمِلت على الحكاية هي أحد البدائل المستعملة، وليست هي الكل بدليل أن أكثر العرب يقولون: "دعنا من تمرتين"، أو "ألسن بقرشي؟" من غير الحكاية.

لكن في المقابل وكما سبق التأكيد لا يمكن رفض ما ورد من أمثلة محكية، كما لا يمكن وصفها بالشذوذ، بل هي أمثلة جاءت أحياناً من باب التوسع اللغوي في التواصل بين طرفي

²¹ (صحراوي، ص200)

²² صحراوي، التداولية عند علماء العرب، ص185

²³ انظر: الشاهد في الإنصاف، 1/112.

²⁴ محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص12

الخطاب، فقد ورد عن يونس أنه كان "يجري الحكاية في جميع المعارف ويرى بابها وباب الأعلام واحداً".²⁵

وأحياناً أخرى تأتي الحكاية بقصد رفع الالتباس وإفادة المخاطب ما ليس عنده نحو: "وإذا قال: رأيت عبد الله. قلت: من عبد الله؟ وإن قال: مررت بعبد الله. قلت: من عبد الله؟ فهذا على سبيل كل اسم علمٍ مستفهم عنه أن تحكيه، كما قال المخبر ولو قلت: في جميع هذا من عبد الله؟ كان حسناً جيداً، وإنما حكيت ليعلم السامع عن هذا الذي ذكر بعينه ولم تبتدئ السؤال عن آخر مثل اسمه، والدليل على ذلك أنك لو قلت: ومن أو فمن لم يكن ما بعدهما إلا رفعاً لأنك عطفت على كلامه، فاستغنيت عن الحكاية؛ لأن العطف لا يكون مبتدأً".²⁶

ويؤكد هذا ما تنبّه إليه النحاة الأوائل من خلال النظر إلى الوظيفة التداولية التي خصّصت بها الحكاية بالأعلام دون غيرها للتركيز بطريقة مباشرة على إفادة المخاطب ورفع الالتباس عنه: "وإنما خصوا الحكاية بالعلم دون غيره من المعارف؛ لأن وضع الأعلام على عدم الاشتراك بخلاف سائر المعارف، فإن كل واحد منهما لأي معين كان كما يأتي في باب المعارف، والحكاية لرفع الاشتراك فكانت بالأعلام أنسب".²⁷

وأحياناً أخرى تأتي هذه الحكاية بقصد تأكيد الفكرة ورفع التوهم عن السامع من خلال التواصل التخاطبي بين طرفيه: "فتحرزوا بالحكاية لما قد يعرض في العلم من التكرير بالمشاركة في الاسم، فجاءوا به لئلا يتوهم المسؤول أنه يسأل عن غير من ذكره من الأعلام".²⁸

ويحمل على هذا قولهم: "إن المتكلم إذا جمع بين من يعقل ومن لا يعقل في النكرات حكيت من يعقل بمن، وما لا يعقل بأي".²⁹

فالطبيعة التركيبية للأسماء تؤدي إلى تحقيق مقاصد المتكلم بدفع التوهم والاشتراك لذلك كانت الحكاية بالأعلام أحق. ولعل ما يشير إلى الطبيعة الاشتقاقية أيضاً قول ابن يعيش: "إنما سوغوا الحكاية فيها؛ لما توهموه من تنكيرها ووجود التزاحم لها في الاسم فجاءوا بالحكاية؛ لإزالة توهم ذلك وهذا المعنى ليس موجوداً في غيرها من المعارف".³⁰

فالحكاية هي انحراف عن القاعدة يقصده المتكلم بهدف جذب انتباه المخاطب ولفت انتباهه إلى مسائل تخاطبية في غاية الأهمية، ويدل على هذا قوله صلى الله عليه وسلم: "إياكم ولو فإن لو تفتح عمل الشيطان"، فلو: اسمٌ إن قصد فيها الحكاية، قاله المصنّف في (شرح الكافية)، ورواه غيره على الإعراب، ولفظه: (إياكم واللو فإن اللو تفتح عمل الشيطان)، فلما جعلت الأداة اسماً وأعربت دخلت عليها (أل)"³¹

وانطلاقاً من هذا رفض النحاة بعض الأنماط التركيبية التي لا تحقق مبدأ الإفادة، واشترطوا لقبولها تقدير الحكاية حتى تتحقق الوظيفة التداولية للخطاب: "وكل فعل تصل به (الذي)، أو تصف به النكرة لا يجوز أن يتضمن ضمير الموصول أو الموصوف فغير جائز أن تصل به

²⁵ انظر: المبرد، المقتضب، 308/3.

²⁶ السابق نفسه.

²⁷ الرضي، شرح الرضي على كافية ابن الحاجب، ج3/323.

²⁸ ابن يعيش، شرح المصل، 4/19.

²⁹ الحيدرة اليمني، كشف المشكل، 524.

³⁰ ابن يعيش، شرح المفصل، ج4/19.

³¹ انظر: الصبان، حاشية الصبان على شرح الأشموني، 93/4.

(الذي) لو قلت: مررت برجل نعم الرجل، لما جاز إلا أن تريد (هو نعم الرجل) فتضمر المبتدأ على جهة الحكاية.³²

كما اعتمدوا عليها في توجيه بعض الحالات الإعرابية يحمل على ذلك قول سيبويه: "وزعم الخليل أن أيهم إنما وقع في قولهم: "اضرب أيهم أفضل" على أنه حكاية."³³

ومنه توجيه قوله تعالى: (ثُمَّ لَنُنزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا)³⁴ حيث عدوا رفع (أيهم) على الحكاية، بتقدير: (قائلين أيهم).³⁵

ومما يرتبط بهذه المسألة أيضاً توجيه الزمخشري لقراءة قوله تعالى بالجر: (قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ لِأَمْلَأَنَّ)³⁶ فرأى الزمخشري أن الجر في (الحق) الأولى على تقدير واو القسم، و(الحق) الثانية على أن المعنى "وأقول والحق" أي هذا اللفظ، فأعمل القول في لفظ واو القسم مع مجرورها على سبيل الحكاية للفظ المقسم به.³⁷

إنَّ عدم الاعتراف بظاهر بعض هذه النصوص واعتمادهم على تقدير الحكاية في تخريجها، يعود إلى اهتمامهم المباشر بطرفي الخطاب، وهذا ما ركز عليه التداوليون بقولهم: "لا يمكن أن ندعي فهمنا للكلام من دون استحضار شروط إنتاجه المحيطة به خاصة عنصر المتكلم والسامع"³⁸

رابعاً: الحكاية والمؤثرات التداولية التخاطبية الحكاية ومؤثرات البيئة اللغوية

يولي البحث التداولي أهمية قصوى بالسياق والمقام والمتكلمين ومقاصدهم ومؤثرات الاستعمال، وإنَّ التداولية منهج يحمل آفاقاً واعدة في التحليل؛ لخصوبة المجالات التي تحتاحها والتي تتعلق بالتخاطب وإيلاء الأهمية للظروف التي يتم فيها التخاطب وكذا اعتبار التخاطب أو التكلم فعلاً إنجازياً،³⁹

ومن أهم الأسس التي كوّنت الأنماط الاستعمالية المنبثقة عن الحكاية وجود بعض لغات العرب التي تلجأ إلى هذه الحكاية مع اختلاف بينها في مسألة الوجوب والجواز والمنع.

ولعلَّ هذا الأساس يكشف لدارس اللغة أن اللهجات كانت تقوم بدور محوري في تشكيل القاعدة اللغوية، فاللغوي كان يأخذ بعين الاعتبار تباين هذه اللهجات واختلافها.

وقد أدّى اهتمام اللغويين باللهجات ومستوياتها إلى إغناء اللغة، وقواعدها بكثير من الأنماط الاستعمالية التي نتبين من خلالها أن الفضاء اللغوي يتسم بمرونة شديدة في تقبل الأداءات اللغوية ذات الصلة بالقاعدة التي تؤدي المعنى المقصود وبذلك كان لتعدد اللهجات العربية وتباينها إثراءً للنحو العربي تعدداً وتنوعاً في قواعد، وقد يكون هذا التعدد في ظل الظاهرة النحوية الواحدة، حيث

³² ابن السراج، الأصول، 267/2.

³³ سيبويه، الكتاب، 399/2.

³⁴ سورة مريم: آية (69)

³⁵ الرماني، رسالتان في اللغة، 44.

³⁶ سورة ص، آية (83-84)

³⁷ الزمخشري، الكشف، 108/4

³⁸ Leech. G. The Principles of Pragmatics ,1998. P4.

³⁹ التداولية وآفاق التحليل، شيرت رحيمة، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، ع 2وع 3، جوان 2008

تجد فيها أكثر من قاعدة نتيجة تباين اللهجات العربية في استخدام التراكيب والأساليب في التعبير عن المعنى الواحد.⁴⁰

ولذلك كانت العلاقة بين لغات العرب، واستعمال ظاهرة الحكاية علامة واضحة المعالم يتعامل معها اللغوي بكل حيادية حتى يصفها في أطر تركيبية تتماشى والواقع التداولي للغة، ومما يثبت تلك العلاقة أنَّ أهل الحجاز كانوا يستعملونها، لكنهم خصوها بالاسم العلم والكنية فيقولون: "إذا قال: رأيت زيداً. من زيداً؟ وإذا قال: مررت بزيد. (من زيداً؟) فيجعلون (من) في موضع رفع بالابتداء، وزيداً في موضع الخبر، ويحكون الإعراب، وتكون الحركة قائمة مقام الرفع التي تجب لخبر المبتدأ."⁴¹

وإذا ما انتقلنا إلى التميمين نجد أنهم اختلفوا عن الحجازيين: "وأما بنو تميم فلا يحكون، ويقولون: مَنْ زيد بالرفع في جميع الأحوال، فيجعلون من في موضع رفع؛ لأنه مبتدأ، وزيد هو الخبر، ولا يحكون الإعراب وهو القياس."⁴²

وفي هذا الرأي تأكيدٌ أنَّ الحكاية خارجة عن القياس، ولكن يجب التوقف عند هذا الرأي والتعامل معه بشيء من المنطق.

فأنماط الحكاية التي عدّها بعض العلماء أنها خارجة عن القياس ما هي إلا انزياح عن القاعدة الرئيسية يعطي المتلقي الفرصة في التواصل مع المتكلم بالحركة نفسها دون تغيير رغم أنَّ هذا الاستعمال فيه خلاف للقاعدة الأصلية التي وصفها النحاة؛ لأن " المتكلم يجب أن يحيل المتلقي أو السامع إلى شيء يتبينه ويتعرفه فضلاً عما يمكن أن يكون للظروف الخارجية والاجتماعية وغيرهما."⁴³

لكن هذا الفضاء الاستعمالي ليس عبثياً بل هو مقصودٌ أرادته المتلقي حتى يوصل فكرة ما ويُنَبِّه المتكلم إليها؛ لذلك لجأ ابن اللغة إلى التغيير والتبديل التركيبي، واستعمال النمط اللغوي بشكل ثابت، ولجأ عالم اللغة إلى التقدير والتأويل، ولولا وجود الحكاية لكانت هناك إشكالية كبرى في كيفية التعامل مع هذه الشواهد.

ولعلَّ سيبويه قد أشار إلى علاقة تكاملية تلتنق في لغات العرب، والمقصود هنا لغة أهل الحجاز التي تجيز الحكاية، والعلاقة التواصلية بين المتكلم والمتلقي والمعنى الذي يستفاد من استعمال الحكاية؛ ولذلك فإنَّ هذه العلاقة الثلاثية كانت من الأسس التي أدت إلى نشوء الحكاية وفي هذا قال:

"وأما أهل الحجاز، فإنهم حملوا قولهم على أنهم حكوا ما تكلم به المسؤول، كما قال بعض العرب: دعنا من تمرتان. على الحكاية لقوله: ما عنده تمرتان، وسمعت عربياً مرة يقول لرجل سأله فقال: أليس قرشياً؟ فقال: ليس بقرشياً حكاية لقوله. فجاز هذا في الاسم الغالب كما جاز فيه وذلك أنه الأكثر في كلامهم، وهو العلم الأول الذي به يتعارفون. وإنما يحتاج إلى الصفة إذا خاف الإلتباس من الأسماء الغالبة، وإنما حكى مبادرة للمسؤول، أو توكيداً عليه أنه ليس يسأله غير هذا الذي تكلم به."⁴⁴

ولا يمكن للباحث أن يغفل نباهة شيخ النحو العربي في هذا المقام فقد حاول الكتاب تفسير المظاهر الطارئة على بنية التراكيب النحوية في اللغة، ولمَّا سعى إلى تعليلها انتبه رأساً إلى ما

⁴⁰ الحمزاوي، دور اللهجة في التقعيد النحوي، 93

⁴¹ الأنباري، أسرار العربية، 343.

⁴² السابق نفسه.

⁴³ الحموز، عبد الفتاح، انزياح اللسان العربي الفصيح والمعنى، 9

⁴⁴ سيبويه، الكتاب، 413/2.

لجهاز التحوار من سيطرة على نواميس الحدث التخاطبي حتى إنَّ مبدأ التفاهم قد غدا بمنزلة المعيار الضابط لطاقة الاختزال أو التصريح في الكلام فيكون له التأثير نفسه في تحديد أبعاد الشمول والاستيعاب عند تقدير الظاهرة اللغوية كلياً⁴⁵

ولعل ممن سار على منهج سيبويه في هذا ابن الوراق الذي قال:

"وأما (أي) إذا استفهت بها عن نكرة فإنك تعربها؛ لأنها متمكنة يدخلها الإعراب، فوجب أن يلحقها الإعراب علامة للحكاية، إذ كانت متمكنة، فتقول إذا قال الرجل: رأيت رجلاً: أيا يا هذا؟ وأبين؟ في التثنية وأبين؟ في الجمع، وكذلك أيان وأيون في الرفع. وبعض العرب يوجد (من) في جميع الجهات فيأتي بالواو والألف والياء فيقول: منا للواحد المنسوب والمثنى والمجموع، وكذلك: منو، ومني في الرفع والجر، وإن تثنى وجمع، وإنما جاز ذلك؛ لأن (من) فيها معنى العموم، فلما كانت تقع على الجماعة لفظها ونفطها واحد جاز أيضاً أن تقع هاهنا في هذا الموقع⁴⁶

ومن هذا يتأكد لنا أن: " التداولية تهتم باللغة في وضعية التواصل بمعناه العام " ⁴⁷

الحكاية والمؤثرات الزمنية.

إنَّ النحو بوصفه دراسة النظام الشكلي للغة والتداولية بوصفها مبادئ استعمال اللغة حقلان متكاملان في اللسانيات فلا يمكن أن نفهم طبيعة اللغة بدون دراسة كلا الحقلين ودراسة التفاعل بينهما⁴⁸

ويُقصد هنا دور الحكاية في تحوّل الدلالة الزمنية من مثل حكاية الماضي بلفظ المضارع، ولعل ما حمل على ذلك قوله تعالى: (وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ)⁴⁹ (42) حيث قال الخضري في تعليقه على هذه الآية:

" ونقلبهم دون قلبناهم، والمعنى بسط ذراعيه والمشهور في حكاية الحال أن يقدر الماضي واقعاً زمن التكلم وقبل أن يقدر المتكلم نفسه موجوداً في زمن وقوع الفعل، ويعبر على كل بما يدل على الحال وكون الآية من ذلك، إنما هو باعتبار المخاطبين لا الخالق جلّ وعلا فإنّ الدنيا عنده كاللحظة الواحدة⁵⁰

إنَّ هذه الإشارات تعبّر عن أهم المبادئ التداولية في العصر الحديث التي اهتمت بـ " دراسة كيف يكون للمقولات معانٍ في المقامات التخاطبية. " ⁵¹

ومما يحمل على هذه المسألة أيضاً ما ورد أيضاً من إيضاح لمسألة تأثير دخول حتى على الفعل المضارع حيث حدّدوا الحالة الإعرابية للفعل رفعا أو نصبا بناء على زمن الحكاية قال الخضري في تعليقه على ابن عقيل:

" وقوله: "وقصدت به حكاية الحال الماضية" أي: قدرت نفسك موجوداً في وقت الدخول الماضي كما أشار له الشارح بقوله: كنت أو قدرت الدخول الماضي واقعاً حال التكلم، وعلى كلّ تعبّر بالمضارع لاستحضار صورته العجيبة، فإنك وإن قدرت اتصافك وقت التكلم بالعزم على

⁴⁵ عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة ص 232

⁴⁶ ابن الوراق، علل النحو، 428.

⁴⁷ التداولية والسيمائية أ. ج كريماس، وا. لندفسكي. علامات ج33، مج 9، جمادى الأولى 1420، سبتمبر، 1990، محمد الداوي. ص 35.

⁴⁸ Leech. G. The Principles of Pragmatics ,1998. P4.

⁴⁹ سورة الكهف: آية 18.

⁵⁰ الخضري، حاشية الخضري على شرح ابن عقيل، 39/2.

⁵¹ علي، محمد يونس، مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ص3

الدخول وجب النصب؛ لأنه مستقبل حينئذ تأويلاً ولذلك قرئ قوله تعالى: (وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ) ⁵² بالنصب لغير نافع مع أن قول الرسول وهو (أليسع) أو (شعيا) ماض بالنسبة لزمان حكاية ذلك لنا واستقباله بالنسبة للزوال غير معتز لكنه على تقدير اتصاف الرسول وقت الحكاية لنا بالعزم على القوم فصار مستقبلاً تأويلاً ورفع نافع على فرض القول واقعاً حال الحكاية استحضاراً لصورته. ⁵³

وهذا التوجيه يكشف لنا أطر التلاقي مع التداولية التي اهتمت بالسياق أو التسييق وهو ربط الكلام بسياقه النصي واللساني السابق واللاحق. ⁵⁴

فحكاية الحال تشير بوضوح إلى منهجية محكمة تتدخل في توجيهات النحاة، وهي منهجية تداولية سياقية قائمة على مراعاة الدلالات المختلفة للسياق ودورها في استنباط القواعد والاستدلال عليها بما يؤكد أن النظام النحوي " عبارة عن نسق الأوليات والمسلمات والمبادئ العامة وهو بشكل دقيق يعتمد قواعد استدلالية تجعل منه بنية استنباطية معتمدة وهو غني بما يكفي من هذه العناصر مجتمعة لتمثيل ما يوجد من اختلاف بين اللغات وتغير بداخلها. " ⁵⁵

وبذلك فإن الصورة الذهنية أدت إلى توجيه النحاة للحالة التركيبية، أضف إلى ذلك أن النظر إلى الدلالات الزمنية من حيث الحال أو الاستقبال أدت إلى توجيه بالنصب أو الرفع.

إن هذه النظرية السياقية التداولية التي وجدت بذورها في التراث اللغوي العربي تكشف بحق سعة الفكر النحوي العربي من جهة، وعن عمق الدلالات العقلية التي كان يركن إليها نحائنا في توجيهاتهم، وبالفعل إنها دلالات ذهنية تركز إلى (العقل) المرتبط بالاستعمال، لا إلى العمليات العقلية المجردة عن الواقع الاستعمالي " فالنحو واقعي لأنه موجود في دماغ المتكلم. " ⁵⁶

ولعلنا لا نبالغ القول: إن الحكاية توصلنا إلى حقيقة مفادها أن النظرية النحوية العربية نظرية عقلية تداولية، تنظر إلى طرفي الخطاب (متكلم وسامع) وفق شبكة من الافتراضات المتحصلة من هذا التواصل، وبذلك تكون إملاءات الحكاية في التوجيهات النحوية سبقت معظم النظريات اللغوية الحديثة التي لجأت إلى دراسة الذاكرة اللغوية وطبيعة إنتاجها لسلسلة من الجمل التي تعرضت لجملة من التغييرات وفي هذا قال تشومسكي: " من الآن فصاعداً نعتبر أن اللغة كناية عن مجموعة متناهية من وغير متناهية من الجمل. وكل جملة منها طولها محدد، ومكونة من مجموعة متناهية من العناصر. " ⁵⁷

فالنظرية اللغوية العربية تركز إلى الذاكرة والذهن وإلى استحضار الصورة وفق تقنيات رياضية تكشف عن عمق هذا التفكير، وعن حيوية القاعدة النحوية، وعن فضاءات تلك القاعدة وآلياتها النظرية التي تميل إلى وضع الاستعمالات في قوالب ديناميكية مفعمة بالمعاني الوظيفية والأطر الاستعمالية.

ولعل ما يثبت هذه الحيوية أو الديناميكية أن النحوي في توظيفه للحكاية مرة يلجأ للهجة، وأخرى للتعليل، وثالثة للاستعمال، ورابعة للذهنية، وخامسة للسياق وزمانه، وللخطاب وأطرافه، وسادسة للأقيسة الشكلية والجوهرية، وسابعة للمعنى ودلالاته، وهذا ما اتضح لنا جلياً من الآراء السابقة، وهكذا تتوالى تقنيات التفكير النحوي وفق سلسلة من الاستدلالات التي يلجأ إليها النحوي

⁵² سورة البقرة، آية 214

⁵³ الخضري، حاشية الخضري على شرح ابن عقيل، 176/2.

⁵⁴ كاظم، فيصل مفتن، التداولية في النحو العربي، مجلة أبحاث ميسان، المجلد الثاني، العدد الرابع، عام 2006،

ص48.

⁵⁵ الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية، 43

⁵⁶ السابق، 46

⁵⁷ ميشال، زكريا، مباحث في النظرية الألسنية، 102.

وفق ما يراه مناسباً من استخدام تقنية دون أخرى، ولعل مسألة الحكاية وفرت للنحوي الأفق الاستعمالية التداولية فكرياً ونطقياً.

خامساً: الحكاية والتعليل التداولي

من غير المقبول البحث في مسألة الحكاية، والخوض في جزئياتها، وإغفال التراكم التي حملت عليها.

وقد ظهرت جملة من الشواهد اللغوية التي حُملت على الحكاية عند النحاة، وبحثوا فيها ضمن أطر القواعد اللغوية التي تجسد أبعاداً نظرية متكاملة تحفظ اللغة وأقيستها، وتعليلاتها من جهة، وتركن إلى الوظائف التي تؤديها بعض الأنماط المستعملة، وفتحت هذه الأنماط وما تؤديه من وظائف المجال أمام النحاة للنظر في الجملة، ووضعها في إطارها التركيبي الصحيح.

ومن ينعم النظر في الفكر اللغوي العربي يجد اللغويين يجعلون جلّ اهتمامهم في تحديد مميزات لكل قاعدة، ولذلك كانوا ينظرون إلى الأمثلة المحكية وفق منهجية تمثيلية محكمة، لا تنبني على العشوائية، أو الفطرية بل هي منهجية متزنة تقوم على النظر إلى سلسلة من العلاقات النحوية بين المثال أو الشاهد المستعمل، وبين التوجيه المنطقي الذي يرتبط بالقاعدة من جهة وبالاستعمال من جهة أخرى، ولعل هذا ما تكشف لنا من خلال دراسة توجيهات النحاة للأمثلة المتعلقة بالحكاية من وجهة نظر تداولية.

ولا يمكن إنكار الدور الذي تقوم به الحكاية في حسم بعض الخلافات النحوية بين البصريين والكوفيين، ففي مسألة الخلاف (نعم وبئس) هل هما اسمان أم فعلاان؟

استشهد الكوفيون على اسميتهما بدخول حرف الجر عليهما نحو: "ما زيد بنعم الرجل" ونحو: "والله ما هي بنعم المولودة"⁵⁸

والواضح أنّ دور الحكاية في نفي الأسمية جليّ ويشير إلى ظاهرة في غاية الأهمية ألا وهي تعدّد الأقيسة عند النحاة العرب في أثناء وضع القواعد. فالنحاة لم يعتمدوا على الأقيسة الشكلية فقط، بل إنهم لجؤوا إلى المعنى وما يرتبط به من أقيسة جوهرية لإيجاد العلة اللغوية المناسبة، فلو كان مقياسهم شكلياً فقط لوجدناهم مثلاً قبلوا باسمية (نعم وبئس).

إضافة إلى ذلك، فإنهم لم ينظروا إلى تلك المقاييس الشكلية والجوهرية التي ساروا عليها بشكل منفرد عن طبيعة الاستعمالات اللغوية التي وردت على هذه الظاهرة، أو بشكل منعزل عن طبيعة السياق التي وردت فيه، بل إنهم عملوا على وضعها ضمن إطار يراعي الشكل والمعنى ولا يغلب أحدهما على الآخر.

وهذا ما تجلّى واضحاً بإدخالهم تقنية (الحكاية) في تعليلهم لدخول حروف الجر على (نعم وبئس) وحتى على ما لا شبيهة في فعليته نحو (نام)، فهم قد وضعوا هذه الشواهد في سياقها المعقول فوجدوا أنّ المعنى المستفاد من الحكاية يشكل جانباً مهماً في بلورة هذه القاعدة؛ لذلك طفق البصريون بالرد على الكوفيين بقولهم: "لا يجوز أن يحكم لنعم وبئس بالاسمية لدخول حرف الجر عليهما لتقدير الحكاية... والتقدير في قوله "والله، ما هي بنعم المولودة" والله، ما هي بمولودة مقول فيها نعم المولودة."⁵⁹

إنّ من الأسس التي قامت عليها ظاهرة الحكاية في الدرس اللغوي العربي هو ميل اللغويين إلى إيجاد العلة اللغوية التداولية لكثير من المسائل.

⁵⁸ انظر: الأنباري، الإنصاف، 97/1

⁵⁹ السابق، 113/1.

وللتعليل أهمية كبيرة في الفكر اللغوي، إذ يعدّ أصلاً من الأصول التي قام عليها البناء اللغوي. "فقد سئل الخليل بن أحمد رحمه الله عن العلل التي يعتل بها في النحو، فقيل له: عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك؟ فقال: إن العرب نطقت على سجيبتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها وقام في عقولها علله وإن لم ينقل ذلك عنها واعتلت أنا بما عندي أنه علة لما علته منه؛ فإن أكن أصبت العلة فهو الذي التمس؛ وإن تكن هناك علة غير ما ذكرتُ فالذي ذكرته محتَمَل أن يكون علة له." ⁶⁰

وفي هذا السياق، فإنّ الحديث عن التعليل يرتبط بشكل أو بآخر بمسألة التسويغ في الفكر اللغوي والناظر في التعليل كعامل مكوّن للحكاية يجد علاقة وثيقة بينه وبين التسويغ.

وهذا الأمر ليس غريباً على جسد اللغة، بل هو أمرٌ طبيعي تألفه اللغة ومما يدل على دور التعليل في تشكيل الحكاية رأي البصريين في ردّهم على الكوفيين.

"وقول بعض العرب: نعم السير على بنس العير، وقول الآخر: والله، ما هي بنعم المولودة". فنقول دخول حرف الجر ليس لهم فيه حجّة؛ لأنّ الحكاية فيه مقدّرة وحرف الجر يدخل مع تقدير الحكاية على ما لا شبهة في فعليته. ⁶¹

وتعكس العلاقة بين التعليل التداولي القائم على مراعاة ظروف التخاطب والحكاية أموراً ثلاثة:

أولها: أنّ إدخال النحاة للحكاية في تعليلاتهم يثبت تعدد مستويات التفكير لديهم في أثناء ممارستهم لأليات التقعيد النحوي؛ فالنحوي لم يعد يفهم النص فقط ممّا هو مكتوب أو منطوق، بل إنّّه يحاول الغور في أسرار المميزات اللغوية لكل تركيب وفق آلية تحليلية تنظر إلى تقنيات التفسير والتأويل انطلاقاً من الأساس الحقيقي للألفاظ ودلالاتها لذلك هم "رفضوا تثنية الحكاية أو جمعها أو إضافتها." ⁶²

ومما يثبت هذا أيضاً قولهم: "ولا تجوز الحكاية فيما بعد (أي) كما جاز فيما بعد (من) وذلك أنه إذا قال رأيت عبد الله قلت: أي عبد الله؟ وإذا قال: مررت بعبد الله. قلت: أي عبد الله؟ وإنما جازت الحكاية بعد (من) في قولك: من عبد الله؟ لأنّ أياً واقعة على كل شيء وهي للأدميين، ومن أيضاً مسكنة في غير بابها. وكذلك يجوز أن تجعل ما بعد (من) في غير بابها." ⁶³

ثانيها: أنّ لجوء النحاة إلى تعليل وتفسير بعض الأنماط اللغوية انطلاقاً من الحكاية يعكس نمطاً جديداً من أنماط تعامل النحاة مع الاستعمالات، ألا وهو استنباط الأحكام من الواقع التداولي الذي يركز على: "المرسل والمتلقي، والرسالة، وعملية التأثير والتأثر، والقصد، ونوايا المتكلم، والفائدة من الكلام، والإفهام." ⁶⁴ لا ممّا هو مفترض بحيث تكون هذه الأحكام تابعة لقياس هذه الأنماط المستعملة على غيرها حتى لو كانت في ظاهرها مخالفة للقواعد. فمثلاً في دخول حرف الجر على نعم وبنس وافقوا على تقدير الحكاية فيها بناء على قياسهم على تقدير الحكاية في دخول حروف الجر على الفعل نحو: (بنام).

ثالثها: إنّ تعليل النحاة لأنماط الحكاية المتعلقة بتعدد الأوجه الإعرابية ظلت مرتبطة بفضاء التأويل والتقدير الذي يركز على طبيعة الوظائف النحوية بناء على بيان العلاقات التركيبية داخل

⁶⁰ السيوطي، الاقتراح، 307.

⁶¹ الأنباري، الإنصاف، 112/1.

⁶² المبرد، المقتضب، 11/4.

⁶³ سيبويه، الكتاب، 408/2.

⁶⁴ بو بكر، راضية خفيف التداولية وتحليل الخطاب الأدبي مقارنة نظرية -، مجلة الموقف الأدبي، العدد 399،

السنة الرابعة والثلاثون، تموز 2004.

الجملة فقد ظلّ الارتباط بين الحكاية والعلل اللغوية حاضراً في توجيه بعض القراءات القرآنية المختصة بتعدد الأوجه الإعرابية نحو قوله تعالى: (قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ)⁶⁵ "فإن المفسرين يقولون في هذا: أعني المنصوب قولين: أما المرفوع، فلا اختلاف في أن معناه - والله أعلم - قولي سلامٌ وأمري سلام. وأمّا المنصوب، فبإضمار فعل كأنهم قالوا: سلّم سلاماً. وقال بعضهم: لم يكن هذا هو اللفظ ولكنه معنى ما قالوا فإنما هو بمنزلة قلت: حقاً"⁶⁶

ومن خلال هذه التأويلات ننتيّن الفرق بين العمليات النحوية والتداولية، فالتفسير التداولي يعتمد على المظاهر الاتصالية للغة فبينما تكون التفسيرات النحوية شكلية أساساً، تتحرك التداولية على المستوى الأدائي للجملة، ويعرف المعنى في التداولية بالإحالة على المتكلم أو مستخدم اللغة بينما المعنى دلاليّاً يعدّ بأنه أحد خصائص الجملة في لغة معينة بصورة مجردة عن أي موقف معين أو متكلم أو مستمع.⁶⁷

الخاتمة

من خلال ما تقدم استطاعت الدراسة التوصل إلى جملة من النتائج من أهمها:

أولاً: إنّ المفهوم الاصطلاحي للحكاية عند النحاة العرب يعكس أمرين: أحدهما يتصل بمسألة الثبات الاستعمالي سواء أكان هذا الثبات في الحركة، أم في الصيغة، وقد تجاوزت فكرة الثبات هذه النظر إلى الموقع وما يرتبط به من عوامل ومعمولات. والآخر أنّ النحوي كان ينظر إلى الحكاية من منظار الاستعمال الذي ينأى بالقاعدة عن الجانب المعياري إلى المعيار التداولي.

ثانياً: إنّ الواقع التداولي للحكاية يكشف لنا أنّ هذه الظاهرة نشأت في رحم التواصل بين طرفي الخطاب المتكلم والمخاطب.

ثالثاً: إنّ ثنائية التصد والإفادة تكشف لنا عن حقيقة لا يمكن إنكارها عند النحاة العرب، مفادها أنّ اللغة وفّرت حلقة موسعة من الاستعمالات التي انزاحت عن القاعدة الرئيسية، ولا شك أنّ الحكاية شكّلت حلقة مهمة من حلقات هذه السلسلة الاستعمالية بين طرفي الخطاب.

خامساً: إنّ علاقة اللهجات بأنماط الحكاية يؤكد أنّ هذه الأنماط، ماهي إلا انزياح عن القاعدة الرئيسية. وبذلك أثبتت فكرة البدائل الاستعمالية أيضاً أنّ الحكاية لم تكن شذوذاً عن القاعدة، أو غلطاً، أو توهماً كما ادّعى بعض النحاة، بل هي أنماط لغوية استعملت بين طرفي الخطاب لأداء معانٍ ودلالاتٍ معينة منها ما جاء: (من باب التوسع اللغوي، أو لرفع الالتباس، أو لتأكيد فكرة ما.) وفق سلسلة من الاستبدالات النحوية.

سادساً: إنّ حكاية الحال تشير بوضوح إلى منهجية محكمة تتدخل في توجيهات النحاة، وهي منهجية تداولية سياقية قائمة على مراعاة الدلالات المختلفة للسياق ودورها في استنباط القواعد والاستدلال عليها.

سابعاً: تشير العلاقة بين التعليل والحكاية إلى سلسلة من التقنيات التي كان يستعملها النحاة العرب في توجيهاتهم، وتوحي بتعدد المستويات التي اعتمد عليها النحاة في تفسير الأنماط المحكية، واستنباطهم للأحكام مما هو مستعمل لا ممّا هو مفترض، وتركيزهم على طبيعة الوظائف النحوية بناءً على العلاقات التركيبية داخل النص.

⁶⁵ سورة هود: آية 69.

⁶⁶ الميرد، المقتضب، 11/4.

⁶⁷ التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، أمبراتيكو، ترجمة سعيد بنكرار، المركز الثقافي العربي ص 187.

سابعاً: إنّ الحكاية توصلنا إلى حقيقة مفادها أنّ النظرية النحوية العربية نظرية عقلية تداولية، تنظر إلى طرفي الخطاب (متكلم وسامع) وفق شبكة من الافتراضات المتحصلة من هذا التواصل، وبذلك تكون إملاءات الحكاية في التوجيهات النحوية سبقت معظم النظريات اللغوية الحديثة التي لجأت إلى دراسة الذاكرة اللغوية وطبيعة إنتاجها لسلسلة من الجمل التي تعرضت لجملته من التغييرات.

ثامناً: إنّ الفرق بين العمليات النحوية والتداولية، يتمثل في أنّ التفسير التداولي يعتمد على المظاهر الاتصالية للغة ومؤثرات التخاطب وظروفه في حين تكون التفسيرات النحوية شكلية أساساً وتعتمد على الأقيسة المنطقية التأويلية.

تاسعاً: إنّ النظر في البنى التركيبية لظاهرة الحكاية يؤكد أن أفكار النحاة فيها كانت تسير وفق خارطة واضحة المعالم تعنى بثلاثية تداولية تقوم على مراعاة العقل، والبيئة، والمقام، وتتفرع منها استعمالات أبناء اللغة التي منها ما هو منتظم، ومنها ما هو غير منتظم، لكن وظيفة النحوي تبقى هي الأساس هنا، وهي التوفيق بين هذه المعطيات المختلفة وهذا ما أثبتته لنا نحائنا من خلال نظرهم في الحكاية وبنائها التركيبية.

المصادر والمراجع

- (1) أ. ج كريماص، وا. لندفسكي، التداولية والسيمائية، علامات ج33، مج 9، جمادى الأولى 1420 هـ، سبتمبر، محمد الداوي، 1990.
- (2) أرمينكو، فرانسوز، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، المغرب، 1986.
- (3) أمبراتيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة سعيد بنكرار، المركز الثقافي العربي.
- (4) الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد، (ت 577 هـ)، أسرار العربية، تحقيق: محمد بهجت البيطار دار البشائر، دمشق، ط2، 2004.
- (5) الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد، (ت 577 هـ) (الإنصاف في مسائل الخلاف، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت
- (6) بليغ، عيد، التداولية البعد الثالث في سيموطيا موريس، مجلة فصول، القاهرة، عدد ربيع 2005م.
- (7) بو بكر، راضية خفيف التداولية وتحليل الخطاب الأدبي مقارنة نظرية -، مجلة الموقف الأدبي، العدد 399، السنة الرابعة والثلاثون، تموز 2004.
- (8) الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت.
- (9) الحمزاوي، علاء إسماعيل، دور اللهجة في التقعيد النحوي، دراسة إحصائية في ضوء همع الهوامع للسيوطي.
- (10) الحموز، عبد الفتاح، انزياح اللسان العربي الفصيح والمعنى، دار عمار، عمان، ط 1، 2008.
- (11) الخضري، حاشية الخضري على شرح ابن عقيل، ضبط وتشكيل: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، 1995.
- (12) خوسيه، ماريا إيفانكوس، نظرية اللغة الأدبية، ترجمة، د. حامد أبو أحمد، دار غريب، القاهرة، 1991.
- (13) ذو الرمة، ديوانه، تحقيق: عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان، بيروت ط2، 1982.
- (14) الرضي الاستريادي (ت 686 هـ)، شرح الرضي على كافية ابن الحاجب، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، عالم الكتب، القاهرة ط1، 2000.
- (15) الرماني، علي بن عيسى، رسالتان في اللغة، تحقيق: إبراهيم السامرائي، دار الفكر ط 1، 1984.
- (16) الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407 هـ.
- (17) ابن السراج، أبوبكر محمد بن سهل (ت 316 هـ) (الأصول في النحو، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، مكتبة الرسالة، بيروت ط1، 1985.
- (18) سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان قنبر (ت 180 هـ) (الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، (د.ب.ت)
- (19) السيوطي، جلال الدين، الاقتراح في علم الأصول، علق عليه: محمود سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، 2006.
- (20) السيوطي، همع الهوامع، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الكويت.

- (21) شبيتر، رحيمة، التداولية وأفاق التحليل، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، ع 2 وع 3، جوان. 2008.
- (22) الصبان، محمد بن علي، حاشية الصبان على شرح الأشموني، مكتبة دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
- (23) صحراوي، مسعود، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2005.
- (24) العكبري، أبو البقاء عبدالله بن الحسين، (ت 616هـ) اللباب في علل البناء والإعراب، تحقيق: عبد الإله النيهان، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط1، 1995،
- (25) علي، محمد يونس، مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، 2005.
- (26) محمد عناني، المصطلحات الأدبية الحديثة، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، 1996.
- (27) الفهري، عبد القادر الفاسي، اللسانيات واللغة العربية، الدار البيضاء، 1985.
- (28) المرشد، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، القاهرة، 1399هـ.
- (29) المسدي، عبد السلام التفكير اللساني في الحضارة، الدار العربية للكتاب، طرابلس-تونس، ط2، 1986.
- (30) مقبول، إدريس البعد التداولي عند سيبويه، عالم الفكر، مجلد 33، يونيو 2001.
- (31) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم (ت 711)، لسان العرب، دار صادر بيروت، ط3، 2004.
- (32) ميشال زكريا، مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة، بيروت، ط2، 1985.
- (33) نحلة، محمود أحمد، أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2002.
- (34) الوراق، محمد بن عبدالله، علل النحو، تحقيق: محمود سالم الدرويش، مكتبة الرشد، الرياض ط1، 1999.
- (35) اليماني، علي بن سليمان الحيدرة، كشف المشكل في النحو، تحقيق: هادي مطر الهلالي دار عمار، عمان، ط1، 2002.
- (36) ابن يعيش، موفق الدين النحوي (ت 643هـ)، شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت، (د.ط)، .
- (36) Georg Yole, Pragmatixes, Oxford University press New York, 2000.
- (37) Crystal, D., A Dictionary of Linguistics and Phonetics, Black well, Great Britain, 1999.
- (38) Leuin Son, Stephen, Pragmatics, Cambridge University, 1983.
- (39) Leech. G. The Principles of Pragmatics, 1998.